الفصل العاشر

التاريخ يُلقي بناظره على المستقبل

يُعد التاريخ أكثر من كونه حكاية مثيرة حول الأحداث الجسام في العالم، إذ يقول «بيكون» أن التاريخ يجعل منا حكماء، والتاريخ حقًّا يجعل منا حُكماء إذا ما أدركنا كيفية قراءة حقائقه.

لقد كرَّس «أرنولد توينبي» حياته منقبًا وشارحا لبعض المعاني الهامة في التاريخ؛ وهو وإن بدت نظرياته في وقت ما متجاهلةً لحقائقه إلا أنه على الرغم من هذا فقد حثَّ العالم بأسره على دراسة التاريخ بطريقة أكثر عمقًا في التفكير وأكثر علمية، فنحن ننظر إلى الخلف كي نتمكن من التطلع للمستقبل، ولدينا رؤى وخطط تمكن البشرية من السير قدمًا، وإذا أخذنا في الاعتبار هذه النظرة الفلسفية، فما هي الدروس التي تحتاجها البشرية اليوم والتي نستطيع أن نتعلمها من فترة الحضارة العربية الإسلامية؟

(1) إن السلام ضرورة في إحداث التقدم الحضاري هو أحد الدروس الخاصة التي يعلمنا تاريخ الإسلام إياها، فالمناطق التي فتحها العرب في بداية الأمر قد قوضتها الحروب المستمرة، وكان السلام قد أقيم باسم الله وباسم القرآن في كافة ربوع الإمبراطورية الإسلامية والتي ترامَت أطرافها لتصل من الهند إلى حدود فرنسا حيث تمكن التجار والعلماء تحت ظلال الإسلام من السفر من سمرقند إلى أسبانيا، وتسببت التجارة في إثراء الحكام والتجار بالمال والذي كان يخصص للإبداع ونشر الحضارة، وأخذ كل من العلم والتكنولوجيا وفنون الحياة اليومية في الازدهار بشدة، وفي واقع الأمر لم يحدث من قبل أن عاش عامة الناس مثل هذه الحياة الرغدة، وفي الوقت ذاته، فإن الرفاهية التي عاشتها علية القوم كانت من قبيل الأساطير.

(2) يعد الاهتمام الذي لاقته الزراعة تحت مظلة الحكم الإسلامي أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى رفاهية المجتمع وكان الخلفاء المسلمين مستنيرين جدًّا في هذا الصدد، حيث نقبوا في العالم المعروف آنذاك عن نبات جديد أو تشكيلات متنوعة منها وأتاحوا بكل الوسائل التي كانت موجودة بين أيديهم استخدام الري، كما قاموا بحماية الفلاح البسيط في تفرده بامتلاك الأرض. وبَدَا الأمر وكأن المسلمين يعرفون أن الزراعة حقًّا هي الصناعة الأساسية واستمرت أهمية الزراعة

إلى يومنا هذا حيث ترى الدول المتخلفة أن حاجتها العظمى تتمثل في تطوير الزراعة عن طريق الارتقاء باستخدام المُخصِّبات الزراعية وحرث الأرض بطريقة أفضل جنبًا إلى جنبٍ مع استخدام بذور وشتلات أفضل، إن رفاهية كل الشعوب تنبع من التربة، وسوف تُثمر التكنولوجيا المُطبَّقة في الزراعة عن نتائج أعظم من أي مجال آخر يسعى فيه الإنسان، ولذا فإن مثل هذه التكنولوجيا الزراعية تحتاج إلى أن تُرسى دعائمها وتُؤيد عن طريق تعليمها على نطاق واسع.

(3) وتتجلى ميزة أخرى واضحة للحقبة الإسلامية في روح الحماسة التي ازدهر في ظلالها العلم، إذ أنه بمجرد أن أدرك المسلمون قيم العلم، فإنهم قد شرعوا بنَهَمٍ في إعادة إحياء المعرفة اليونانية والتي زوّدوها بأبحاثهم وابتكاراتهم الخاصة، وقد حَذَا كل مركز إسلامي حذْوَ بغداد في إقامة الجامعات ونشر التعليم بين جموع الناس وجذب الأطباء والعلماء إلى بلاط الحكام، ويحدث دائمًا في مثل هذه الفترات من الحماسة والجرأة أن تتقدم الحضارات بصورة سريعة للغاية، ويحيا العالم اليوم حالة من الحماسة في مجال الفيزياء النووية غير أن كون الهدف الرئيس في هذا المجال عسكريًّا قد حط بالكلية من قدر التقدم الهائل الذي أحدثه العلماء النوويون ولا يزالون يحدثونه، وإذا ما تمكَّنا من تسيير طاقات العالم العلمية في قنوات تصُب في بوتقة السلام، فإن هذا التخصيص الجديد لمنحَى العلم سوف يُولد من تلقاء

نفسه حماسات جديدة من شأنها أن تهز أرجاء الحياة على سطح الكوكب من فرط الحماسة التي تحثُّ على التقدم، كدأْب كل الفترات الحضارية العظيمة.

(4) ويجب علينا ألا نغُضَّ الطرف عن أهمية الوحدة اللغوية التي أرساها الإسلام في كل المناطق التي فتحها؛ حيث أضحت العربية اللغة العالمية المستخدمة في الإدارة وفي الحضارة، تمامًا بقدر ما أصبحت الإنجليزية اللغة الإدارية والثقافية للهند، وإذا ما اعتبرنا وجود وسيلة مشتركة للتواصل أمرًا ذا أهمية على جانب طائفة التجار، فإنه كان بالنسبة للأطباء والعلماء والطلاب والفنانين نعمةً لا يُحصيها العد، حيث كان بمقدور هؤلاء المبدعين ومُثري الحضارات أن يتنقلوا من بلاط إلى بلاط في سائر أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان من أثر هذه النعمة الجليلة أن اتسعت مداركهم وشحذت طموحاتهم.

أما أوروبا في العصور الوسطى، فإنها أيضًا- كما رأينا- كان لديها ميزة استخدام اللاتينية كلغة عالمية في التعليم والعلم والحضارة، وكان من جراء هذا أن استطاع العلماء الأوروبيون الانتقال من جامعة إلى جامعة في أي مكان في أوروبا أو في إنجلترا وأن يعملوا بجد واجتهاد في تعليمهم باللغة التي يفهمونها جميعًا.

إن العالم اليوم في أمس الحاجة إلى لغة عالمية، وكان «بهاء الله»- وهو أحد ملوك الزرادشتية القديمة- قد اقترح كيفية تحقيق هذا الأمر منذ قرن مضى تقريبًا،

حيث رأى أن ترسل كل دول العالم وفُودًا إلى مؤتمر يكون غرضه اختيار لغة واحدة؛ إما من تلك اللغات الموجودة أو اصطناع واحدة جديدة، ويتطلب هذا الأمر بعد ذلك وجود لغة ثانوية تستخدم في كل مدارس العالم حيث سوف يتواجد جيل من شأنه أن يُقيم لغة عالمية مساعدة في كل أرجاء العالم، إن هذه الخطة بسيطة بما يكفي لأن يُفنّدها الحاقدون من بين الأمم، وكان من جراء هذا الأمر أن تكون اللغة المختارة لغة مبتكرة ومحايدة مثل الإسبيرانتو أو أيدو.

قد تكون فكرة الاتفاق على لغةٍ عالميةٍ واحدةٍ من هذه المفاهيم التي تُعد في أيامنا هذه من قبيل الأحلام غير أنها ستصير حقيقة في المستقبل، وفي حالة ما توصلنا إلى إيجاد مثل هذه اللغة، فإنها سوف تُسهل التواصل بين شعوب العالم إلى جانب تعزيزها لتقدم العلم والثقافة العامة، وحقًّا قد يأتي هذا اليوم الذي يكون فيه لهذا الكوكب جريدةً واحدةً تعمم بشكل فوري على كل عواصم العالم عن طريق المبرقة الكاتبة.

(5) وأخيرًا وليس آخرًا فإن من بين العوامل التي ساهمت في تقدم الحضارة العربية الإسلامية في هذه الفترة عامل إخلاص الناس لدينهم الواحد وإخلاص الدين لهم، لقد كان التوحيد الذي أتى به الإسلام بسيطًا بما يكفي لكي يفهمه كل المسلمين، إلى جانب أن الدين أمر أتباعه أن يُقيموا الصلاة بصورة يومية وأن

يصوموا شهرًا كاملاً (عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من أذان الفجر إلى غروب الشمس)- وهو الأمر الذي كان كاف لتأسيس نظام من شأنه أن يولد التقوى في حياة الناس اليومية، ورفع الإسلام أتباعه فوق حاجز الجنس والدين حيث أقام من جراء ذلك أخوة حقيقية باسم الله، وتجدُر الإشارة إلى أن هذه الوحدة الدينية قد عزَّزت وشدَّت من أزْر العوامل الأخرى التي أفضت إلى الرخاء والإبداع الثقافي الذي أنتجه هؤلاء الذين يقطنون نصف الكرة الأرضية والذين يتوجهون إلى الله بالشكر خمس مرات في اليوم، وحقًّا كانت هذه الوحدة الروحية العامل الذي أبقى على توحُّد العالم الإسلامي على الصعيد الثقافي حتى بعد أن تمزق إلى ممالك منفصلة، وعلاوة على هذا، فقد تسبب الإسلام في إيجاد وحدة الأعراف والعادات اليومية والتي تسببت في استقرار هذه الحضارة الجديدة التي كانت تنشّأ تحت رعاية الله.

إذا ما أردنا أن نُقّيم حضارة، فإنه لزام علينا أن نوحِّد القوى، وكلما كانت القوة موحدة بدرجة كبيرة، كلما كانت الحضارة أكثر ثباتا، فمصر القديمة مثلاً قد استطاعت من خلال الاعتماد بصفة أساسية على الإخلاص والتوجيه الديني من إقامة حضارة استمرت لثلاثة آلالاف سنة، كما يمكننا الآن تتبُّع بعض الأسباب التي أفْضت إلى الاستقرار الملحوظ الذي شهدته امبراطورية الصين وذلك بالاعتماد على الأدلة التاريخية التي ظهرت في عصرٍ متأخرٍ والتي تُخبرنا عن قوة التماسك

التي أشارت إليها إحدى المخطوطات المكتوبة باللغة اللولوغرامية والتي جمعت كل هذه المجموعة المتنوعة من اللغة واللهجات المنطوق بها تحت مظلة واحدة، ويبقى العامل الأكثر أهمية هو ذلكم التأثير الناجم عن الكونفشيوسية والتي عززتها التاوية والبوذية في آونة ما إلى جانب استيعاب المجتمع لكل القيم الرئيسية لهذه الحقائق المتنافسة.

وتعتبر البشرية اليوم في أمس الحاجة إلى إرساء قواعد الوحدة العالمية، وتجدر الإشارة إلى أن التكنولوجيا والعلم من القُوى الحديثة التي تتسبب في توحيد البشر والتي لها وقع قوي في كل مكان، وناهيك عن هذه القوى، فإن بعض المفكرين في العالم اليوم يتصورون إمكانية توحيد الحياة الدينية على ظهر الكوكب حيث يرى «سوروكين» من جامعة هارفارد أنه يتم التوصل إلى دين مركب يحوي الحقائق الصحيحة من بين كل أديان العالم، ويقف كتاب «ألدوس هكسيلي» الذى يحمل عنوان «الفلسفة الخالدة» على أهُبة الاستعداد لخدمة هذا الدين الموحد.

ويتألف هذا الكتاب الذي يعتبر صورة من الإنجيل العالمي من الكتابات الصوفية الرئيسية في العالم جنبًا إلى جنب مع شرح للمؤلف «هكسيلي»؛ وهو كتاب رائع بالنسبة لهولاء الذين يجتهدون من أجل الوصول إلى المقامات الروحانية العالية.

ويقف «هوكينج» الفيلسوف الديني في جامهة هارفارد على النقيض من هذا حيث يرى أنه من غير الممكن الاتفاق على دين واحد حيث أن ذلك سوف يؤدي إلى انتهاك

طبيعة الدين إذ يعتقد أنصار كل دين أنه مُوحَى من السماء، ومن ثم فهم يؤمنون أن دينهم ليس حقيقة، بل هو الحقيقة ذاتها، بيد أن «هوكينج» لم يوضح لنا كيف يتسنى لأي دين من هذه الأديان الموجودة في العالم أن يحقق هذه المهمة المتمثلة في توحيد هذا الكوكب الذي نحيا عليه روحيًّا.

أما «توينبي» فإنه يدرك أن قيمة الوحدة والحاجة إليها يُمثلان الأساس والقوة الصلبة للعالم الواحد والذي يبدو أنه آخذ في الاقتراب من بعضه البعض، وتقتضي الحضارة العالمية- كما يرى «توينبي»- وجود اتجاه روحي عالمي وآخر دنيوي يصُبان في نهر الحياة، ويبدو في الحقيقة أن «توينبي» يرى أن هدف الحضارة الأوحد هو إقامة كنيسة عالمية حيث أمِل في أن توسع المسيحية من نطاقها بما يكفي لتحقيق هذه المهمة الضخمة، غير أنه في حين لم تتمكن المسيحية بالاضطلاع بهذه المهمة، فإن «توينبي» يرى إمكانية قيام دين جديد يكون قادرا على أن يكسب العالم كله في صفّه.

و صدقا يأمل المرء في أن تكون رؤية «توينبي» للمستقبل تنبؤية- يقول «أرنولد جي توينبي» في كتابه المسمى «الحضارة على سبيل التجربة» ما نصّه «عندما يُتبع الإشعاع بإشعاع تأثيري مضاد، فإن الشيئ الذي سوف يصمد سوف يكون دربة فريدة وعظيمة وشائعة بين جنس البشر كلهم وفي الحياة المشتركة الجديدة .....

ويقول مؤرخو القرن الرابع عشر أن تأثير الحضارة الغربية على معاصريها في

النصف الثاني من الألفية الثانية من العصر المسيحي كان هو صانع الأحداث في هذه الحقبة حيث عُدت هذه الفترة من الزمن الخطوة الأولى في اتجاه توحيد البشر تحت مظلة مجتمع واحد، وكان في هذا الوقت أن قد اكتسبت وحدة العالم ما يبدو أنه أحد الشروط الأساسية التي تقوم بها الحياة الإنسانية- والذي لا يعدو عن كونه جزءً من الطبيعة.

ويتابع «توينبي» حديثه قائلاً: «وسوف يقول مؤرخو القرن الخامس عشر- حسبما أعتقد- أن أهمية هذا التوحد الاجتماعي للبشر لم يكن ليتواجد أثره في مجالات التقنيات والاقتصاد والحرب والسياسة وإنما في مجال الأديان[1]».

(١) أرنولد توييبى: محاكمة الحضارة، أكسفورد.

obeikan.com